قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن فى سُنَّة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو . قال : فضرب بيده فى صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله» [١]. وقد نَما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم يكن الخلفاء يُفْتون بآرائهم إلا بعد استشارة الصحابة[٢]. ومُصِّرت الأمصار وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء فى كل مصر إسلامى تحمل للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه فى القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفَع من شأن العقل الإنسانى إذ جعله الحَكَم فى فروع الشريعة وحثَّه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتَح الأبواب واسعة أمامه كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى . وسرعان ما شادوا صَرْح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصَّله الإسلام من حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقًّا أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصولٌ أُسِّسَتْ على العقل الصحيح وفسحتْ له فى التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً شديداً ، فإذا جَنَى أحدهم جناية شركتْه فى مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع القاهرة) ٢/٥٥

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

تشكرون وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فكلُّ ما فى الوجود مسخّر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأْ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلَق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : (وقل ربِّ زدنى علماً) (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه . ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاوَنا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على العلم والتعلم من مثل : « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثةُ الأنبياء » .

وقد حمّل الإسلام هؤلاء العلماء أمانةَ الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما يُطْوَى فيه من استنباط للأحكام يقول جلّ ذكره : (فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ويقول للرسول الكريم : (وشاورْهم فى الأمر) ، وفعلا كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويَصْدر عن رأيهم[1] . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الإسلام حين لا يوجد نَصٌّ فى كتاب أو سُنَّة . رَوى الرواة عن مُعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرَض لك قضاءٌ ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله

---

(١) انظر «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣ وما بعدها .

فضّله على كل ما فى الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخّرها لفائدته (قل أغير الله أبغى رباً وهو ربُّ كل شىء) (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ). وهو إله واحد يدبّر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون). وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل فى الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة فى الكائنات قادر على أن يردّها إليها (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يُحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير).

ويُنحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم، فيشبههم بالأنعام التى لا تعقل، ويقول إنهم لا يمتازون فى شىء عن الصمّ البُكْم العُمْى (لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا). وكثيراً ما تُختتمُ الآيات بمثل (أفلا تتذكّرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خُلق له من التدبر، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة، ومن ثَمّ كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسيًّا فى الإسلام، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاقتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف.

ويشير القرآن مراراً إلى ما وُهب الإنسان من فضيلة العقل، وأن الله أودع فى هذه الفضيلة خواص تمكّنه من السيطرة على جميع المخلوقات، يقول جلّ شأنه: (الله الذى سخّر لكم البحر لتجرى الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

ودائماً تلقانا فى الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنايا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينْهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونَبْذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجْزَى كلُّ إنسان بما قدَّمت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه فى سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاء فى نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طُوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه فى معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر فى هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخْلَقْ عبثاً وأن له صانعاً سوّى كل شىء فيه وقدَّره ، يقول جلَّ ذكره : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقِنا عذابَ النار) (الشمس والقمر بحُسْبان) (والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن فى الإيمان بوحدانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وهو فى أشهر معلومات ، وقد بَيَّنَ الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهى أن يُرَدّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهى تُذْكر فى القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثًّا عليها فى مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغى أن يتحلّوا به فى سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قواما .. ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يَزْنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويَخْلد فيه مُهانا .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مَرُّوا باللَّغْو مروا كراما) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهْناً على وهن . . وَأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس ولا تَمْشِ فى الأرض مَرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقْصِدْ فى مشيك واغْضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جلَّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة . . يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضًا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّاب رحيم) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن). ومما حرمه تحريماً باتًّا آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والميسر .. رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ويُكثر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبْعثون) وهو يوم الحساب، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يذوقون فيها برْداً ولا شرابا إلا حميماً وغسَّاقاً جزاءً وفاقاً) .

ودائما يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيئته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه فى كل ما يأتى ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هى مشيئة الله التى تسيطر على كل ما فى الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التى تجعله مسئولا أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يداه (وقل الحقُّ منْ ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كلُّ نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هى أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها ، وهى ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار ، وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها ، وفى القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتُّلا إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون . . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرْقان فمن شهد منكم الشهر فليصُمْه . . وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيْطُ الأبيض من الخيط

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما فى الكون (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شىء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتى وسعت كل شىء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة فى القرآن الكريم المحبة التى يفيضها على عباده مستشعرين بجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهى عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم فى الدارين الأولى والآخرة (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبى ، به نوعان من الأرواح خير وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهى الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم ينفثون غوايتهم فيمن ضلوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوى على معنى الخضوع والانقياد ، وقد تردّدت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مثل : (وأنيبوا إلى ربّكم وأسْلموا له) (وأمِرْتُ أن أُسْلم لرب العالمين) . ومن ثَمَّ أُطْلقت عَلماً على ديننا الحنيف فى قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جَلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شَرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فالإســـلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التى تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل فى العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدانية الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصَّمَدُ لم يَلِدْ ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رَبُّ العالمين) رب كل شىء فى الكون وخالقه (ليس كمثله شىء) (لا تُدْركه الأبصار وهو